قطر الندى

الى إخوتي في جمهورية « سلوى » الديمقراطية الشعبية !!

تدثَّر بالكُفر ليلاً طويلاً
وأسرى إلى فجر قطر الندى
ولا نجم يهدي
ولا وهمَ يُجدي
وقبل ارتطامِ الصدى بالصدى
رمى حجراً في لهاة الصحاري
فأسكتَ جوعَ الضواري

وآلى وأَقسمْ :

« سأبلغ واحة قطر الندى
وألمسُ كعبةَ قطر الندى »

وحين تراءَت هلاما شفيفا

وراء السرابِ
وحُمَّى العذابِ
تعرَّى من الكُفر فجراً
وصلَّى وسلَّمْ .
على سُنَّة الحبِّ والموتِ صلَّى وسلَّمْ
لقطر الندى

وقطرُ الندى نجمةٌ لسطوح المخيَّمْ

وشبّاكها وردةٌ للمدى
وقطر الندى لوعة الياسمين
ونُضجُ السنابل قطر الندى
وحين تُغنِّي يُغنِّي الحنين

ويهفو العطاش إلى ماءِ زمزمْ ..

لها المجدُ
والرغدُ
ينطفُ من شفتيها السلامُ
ويهمي الكلامُ
رحيقاً وبلسمْ
ويهجعُ بين السكاكين جُرح المخيَّمْ ..

وقطر الندى نخلة للقفارِ
ونبعٌ لغزلانها الظامئه
وأثنى هزارٍ ، بدون هزارِ
وقطر الندى مُهجةٌ دافئه
وشهوةُ شبَّابةٍ في هدوءِ البراري
وقطرُ
الندى
لاجئه ..

تُكوِّر رُمّانُها في كروم الرحيل
وعسَّلَ في غربة الأهلِ عنقودُها
واستغاثَ البدنْ :

« أما من حبيبٍ
أما من وطنْ ؟ »

وحنَّتْ
وغنَّتْ
لشُبَّاكها :

« يا حِنّا يا حِنّا يا حِنّا
يا قطر الندى
يا شبَّاك حبيبي يا عيني
جلَّاب الهوى .. »

وشبَّاكُها صرخةٌ في فضاءِ الأبدْ
تُرجِّعُها
نسمةٌ من سماءِ البلدْ
وفي ظلِّ شباكها تعبر الكائنات
يمرُّ البشر

ويلقي التحيّة ضوءُ القمر
يمرُّ غزال الفلاة
وأفعى الطفولة والذكريات
ترفُّ طيورٌ
وتمضي قبورُ
يُصافحُ فيها الرفات الرفاتْ
ويلثغُ طفلٌ وليد
ويبكي ويضحكُ يومٌ جديد
ومن تحت شباكها
تهبُّ رياح
يحفُّ شجر
وباسم بذار الجراح
يزخُّ المطر
وفي ظلّ شباكها
ومن بين أشواكها
تمرُّ الحياة
خُطا أزلٍ في الأبد

وتحلمُ قطر الندى

« هل يراني أحد ؟ »

وَما من أحد

وما من أحد ..

وأسكتُ ، من قبل أن يدرك الميتين الصباح

لأن دمي مستباح

دمي شهرزادي

ودمعُ بلادي

وقطر الندى .. دمعُ شباكها ..

تنوسُ شراره

على مخمل الأفق

يخفي الصدى وجههُ خجلاً

تقشعرُّ الحجاره

وصمتٌ من الزنكِ والرعبِ

طيفٌ يُطلّ على حزن قطر الندى

ملاكَ ؟ سنونوّةَ ؟ طائره ؟
تَجَسَّدها الموتُ باللغة الجائره ؟

أطلّي
أيجلبُ شباكك الحبَّ ملءَ المدى
وتبقين صامتةً حائره ؟
أطلّي
وصلّي
لأمردَ ، يندفُ من لحمه حَبَقُ الذاكره
ويهواكِ ، يهواكِ قطر الندى
ويُشهر رشّاشه رايةً
ليصدَّ الردى
ويكيد العدى
ويهواكِ . يهواكِ قطر الندى ..

دَمٌ في دروبِ المخيَّم
وصرخةُ أمٍّ

تلوبُ على لحمِ أبنائها
تحتَ أنقاضِ بيتٍ تهدَّمْ
وتبحثُ عن بعضِ أسمائها
بين أنقاضِ قلبٍ تحطَّمْ
وصيحةُ أمردَ
يندفُ من لحمهِ حبقُ الذاكره
يصوِّبُ حزنَ الطفوله
وشوق طيور الهجيرِ لأرضٍ ظليله
ألا تُبصرين ،
فتى الشمسِ والغيمةِ الماطره
يكادُ يطيرُ
ليسبقَ نيران رشاشهِ
إلى شبحِ الطائره ؟
ويهواكِ ، يهواكِ قطر الندى ..

أطلَّتْ
وصلَّتْ

« يا خوفي ، عدوّك
بيدوّر عليك
لأحطّك بشعري يا روحي
وأتضفّر عليك »

أجل ، هكذا ، امتلئي بالربيع ، امنحي عطر زهركْ
أجل ، هكذا ، باركيه ،
ضعيهِ بشَعْركْ
أجل ، هكذا ،

ولكنَّهم يُقبلون
عدوّاً وراءَ عدوٍّ وراءَ عدوٍّ
بلا موعدٍ يُقبلون
وفي موعدٍ يُقبلون
مخالبُهُم نحو صدركْ
وأنيابُهُم نحو ظهركْ
يجيئون ،
من موتِ زيتونةٍ في الجليلْ

إلى طَلَلٍ من طَلَلْ
يجيئون ،
من موتِ أرز الجبلْ
وموتِ الجيادِ
وموتِ السيوفِ
وموتِ النخيلْ
عدواً وراءَ عدوٍّ وراءَ عدوٍّ
لإخماد نوّار حُبّكْ
لإعدام أمرد ،
كفّاهُ تاريخُ شعبكْ
وعيناه تاريخُ قلبكْ
يقاومُ أسطورةً من كتابِ الظلامِ
وزوبعةً من ظلامِ الردى
ويندفُ من لحمه حبقُ الذاكره
وشمسٌ من القدسِ في خَدِّهِ
وجسمُ فلسطين
روحُ فلسطين

وشمٌ على زندِهِ
(وتهواهُ تهواهُ قطر الندى !)

يجيئون ليلاً
نهاراً يجيئونَ
مشحوذة في الأكف المُدى
لقطعِ ضفيرةِ قطر الندى
لقتلِ حبيب تُخبّئُهُ في الضفيره
لقتل سنونوةٍ ،
تتشكَّلُ من شبحِ الطائراتِ المغيره ..

وحنّتْ
وغنّتْ

« يا خوفي عدوّك
بيدوِّر عليك
لأحطّك بعيني يا عيني
وأتكحّل عليك »

ضعيهِ بعينكْ
أجل هكذا ،
أخرجي الموتَ عن طَورِهِ ،
اختزني الحبَّ والوردَ خلف المتاريسِ
في حربِ حُزنكْ
ولا تذكُري غير أمواتِ أهلكْ
ولا تُبصري غير أحياءِ أهلكْ
وشدّي بزغرودةٍ أزرَ هذا المُريد المقاتلْ
بنار البنادق حيناً
وحيناً بسُخط نِصال المكاحِلْ
ولا تذرفي الدمعَ
رفقاً بكُحلكْ
لأجل الحبيب المقاوم في خندقِ الرمشِ ،
للكُحل آن
وللدمع آن
سنبكي غداً .. مثلما نشتهي
سنبكي ونبكي

ونحنُ نعانقُ أحبابنا الميتين
وأحبابنا العائدين
إلى فرح المهرجان ..

أزاحتْ أناملُها غيمة الدمعِ
عن كوكب الحبّ والحلمِ
رفّتْ على الكُحل أهدابُها
وفي وَهْجِ أشواقها خفقتْ أجنحهْ
وفاحتْ على الروح والجسمِ
نعناعة المذبحهْ
وحنّتْ
وغنّتْ :

« يا خوفي ، عدوَّك
بيدوِّر عليك
ولأحطَّك بخصري يا روحي
وأتزنَّر عليك .. »
فراشاتُ حُلمٍ قديمْ

وزنبقةُ الدهشةِ الآسره
ترفُّ على الخاصره
وتخفقُ في الريح أوتارُ عودٍ هشيمْ
ويخفقُ بالخوف قلبٌ

لأنهُمُ قادمون
بسنجاتهم ، تشتهي الخاصره
بأحقادهم ،
تُشعل النار في جسمِ قدّيسةٍ طاهره
بلعنةِ أمواتهم قادمون

من البحر والبرّ والجوِّ
يحتفلُ الشرُّ في عيده بالجنون
ولا شيء لا شيء في الأرض غير 'لسكون
لأن غرامكِ تذكُرُهُ لغةٌ نسيتْها اللغاتْ

« ومَن عاش مات
ومَن مات فات »
وإنك ، قطر الندى ، باقيه
لأنكِ عدلُ الحياةِ

وروح الحياةْ
وإنكِ ، قطر الندى ، باقيه
بأمردَ
تسكنُهُ النارُ والماءُ والعافيه !

يُداهمُني في مرايا الحرائقِ وجهٌ
يشعُّ .. أرى فيه قطر الندى
يشعُّ .. وأبْصِر فيه فتىً أمردا
يشعُّ .. وأبصرُ وجهي

وقافلةً في السوافي
يشعُّ .. أرى وجه جدّي
وسنبلةً في رمال الفيافي
يشعُّ

وأسمعُ دقّاتِ قلبي
وأبصر دربي
وتُسلمني الريحُ للريحِ
أوغلُ في الوجه وحدي ..

مقابضُ ليست تُعدُّ ولا بابَ
نورٌ ، ولا شمسَ
زرعٌ ، ولا ماءَ
من أرجأ الموعدَ ؟
اشتقتُ واشتقتُ واشتقتُ
بايعتُ
سبَّحتُ
جدَّفتُ
قايضتُ باللِيلِ كوفيَّتي
ابتعتُ من كل سوقٍ دثاراً
لأطفاليَ الميتين على عتباتِ التساؤلِ
جابهتُ بالحُجج الدامغاتِ
أساطين فنِّ الأكاذيبِ
جُبتُ البلادَ رسولاً لعينيكِ
بشرت في العالمين بمذهبِ عشقكِ
كم سترتني المراحيضُ في فندقٍ أو مطارْ
وحيداً

أنوحُ على غربةٍ في المنافي
طريداً
أنوحُ على غربةٍ في الديارْ
وكم لوَّعتني الأغاني
وكم أنهكتْني المراثي
ولا بابَ
لا شمسَ
لا ماءَ
واشتقتُ قطرَ الندى
فمن أرجأ الموعدا ؟!

تغضَّنَ روحُ المُريدِ
أطاقَ الذي لا يُطاقْ
متى يُسعفُ الكشفُ ؟
يا قمر الروح
كيف السُّرى
في المحاق ؟

أماناً
هنا افترسَ الوردُ شرنقةَ الشَّهدِ
جرَّ الجفافُ عباءَتهُ في القلوبِ
تكدَّس ثلجٌ جديدٌ
على جُثث الشهداءِ القدامى
قبورٌ جماعيّةٌ في الشوارعِ
والعارُ والجوعُ والخوفُ
هل يُسعفُ الكشفُ ؟
يا قمر الروح ، كيف السُّرى ؟
وكيف جرى ما جرى ؟!

تضجُّ الموانيءُ بالناس
في كلِّ ميناءَ لي جسدٌ ماثلٌ للسَّفَرْ
ولا تستريحُ المطاراتُ من جلبةِ الخلقِ
كلُّ مطار يرى جسدى مسرعاً للسفر
وأنتِ معي في الموانيءِ
أنتِ معى في المطاراتِ

أنتِ معي في المحطّاتِ
أنتِ معي هاجسٌ دائمٌ
ماثلٌ دائماً للسفر ..
وأنتِ معي دائما
مباركة في معابد جسمي وروحي
مقدسة بطقوسِ محبيكِ
في الإنسِ والجنِّ
هل قرعَ الموت ناقوسَه الضَّخْمَ
إلا ليبرق باسمكِ نصلٌ
ويرحلَ فصلٌ
ويُقبل فصلٌ
لك المجدُ
والرغدُ
يا دمعةَ الفرحِ المُرِّ
في عُرسِ أنثى الهزارِ التقت بالهزار
ولا شيءَ في العشِّ
غير المحبَّةِ في أوجِها .. والدمار

ستحفظُ حبَّكِ كُلُّ اللغاتْ
سيُنشدكِ المتشدون
على العشبِ في ساحةِ البيتِ
في حفلةِ الصفِّ
ملءَ المصانعِ
ملءَ المزارعِ
ملءَ الشوارعِ
يشربُ نخبكِ عُشاق كل الشعوبِ وكلِّ الحياة ..
وأقسمُ ،
بالشهداءِ الذين انتهوا غُصَّةً في رحابكْ
ليبتدئوا وردةً عند بابكْ
سأفتحُ جُرحي على سُدُمِ الصمتِ
أقرعُ بوّابة الموتِ
أكرزُ باسمكِ قطر الندى
سأشعل ناري على جبل الروحِ
أرسمُ وجهكِ
أنشُرُ ظلَّكِ

ملءَ البلادِ

وملءَ الشعوبِ

وملءَ الأغاني

وأكرزُ باسمك .. قطرَ الندى !!

(الرامة ـ كانون الثاني ١٩٨٣)